مالشبابنا لايعتني بدراسة الفقه الاسلامي ؟

لكل امة آمال كثيرة تعلقها على ابنائها الذين هم عدتها في المستقبل لانهم اذا ما ترعرعوا وصاروا رجالا لاشك انهم يبحثون عما تكون به حياتها وسعادتها ويسعون في النهوض بها من مستوي الخمول الى معارج الترقي والشفوق ويعملون بكل كد واجتهاد وجد ونشاط على احياء ما اندثر من سالف عزها وغابر مجدها وفخرها ، غير ان اول واجب على كل من رشح نفسه للقيام بهذه الخدمة الجليلة التي تحفظها له الايام ويسجلها له التاريخ بمداد الاعجاب والاكبار ان لا يلقى بنفسه في بحر ذالك التقليد الاعمى الذي بسببه بادت دول وهلكت امم ، بل عليه ان ينبذه وراءه ظهريا ويطلق لفكره الجرئة في ان يختار لاصلاح حاله وحال امته سبيلا يوافق العقل والطبيعة عله يهتدي الى الصواب وينجو من الخطر العظيم ، فلا يجعل مبدأه قولهم : (الناس اعداء لكل قديم) ويصير يتكلم بما لايعلم ويهتف بما لايعرف ، فانني اخشى على هذا في يوم ما ان يفوته القديم والجديد معا ويصبح من الخاسرين . نعم لاأريد ان تفهم ايه القارئ اللبيب انني ادعو الى القديم حقا كان ام ضلالا خطأ كان ام صوابا ، فانني استعيذ بالله من هذه الفكرة التي ترمي الى التقليد لامحالة ، لاكني أريد ان اعترف بان هناك (اعني في القديم) حسنات لاينكرها الا معاند لم يوت شيئا من الانصاف ، فكم استفدنا منه فوائد ثمينة ، وكم اسدى الينا نصائح وارشادات لا يدرك قيمتها الا من اطلع عليها.

هذه فكرتي وهذا اعتقادى وكل من له مسكة من الاطلاع يدرك صوابية القول ، ولاكن لندع هذا كله ، ولنرجع الى ما نحن بصدده خوفا من ان يطغى القلم وتفوت الفائدة .

كل منا يعلم ان الفقه الاسلامي ضروري لكل من يدين بدين محمد صلى الله عليه وسلم لانه هو الذي يبين لنا قواعد الشريعة واركانها ويعلمنا كيف يجب ان تكون معاملاتنا في هذه الحياة طبقاً لاصول الشريعة المقدسة ونواميسها ، بيد اننا ناسف اليوم جد الاسف حينما نسمع تلك الكلمات من شبابنا الذي نعلق عليه كل الامال تلك الكلمات التي تصير حلونا مراً وتزيدنا سئامه من العيش وضجراً من الحياة يقولون مالنا وللبحث في تلك العويصات والمشكلات التي لانتيجة وراءها ، فلان نطالع رواية من تلك الروايات الغرامية التي تعلمنا كيف نحب وترينا السبيل الذي ينبغي لنا ان نسلكه في طلب ملذاتنا وشهواتنا خير لنا من ان نتعب افكارنا في هم تلك الصور المحالة الوقوع والنظر في تلك الاقوال التي تسأم منها العقول وتمجها الاسماع ، هكذا يقولون وهاذا مايعتقدون ولاكن الواجب يقضي علينا ان نتصدى اليوم لبيان الحقيقة بعد ان تتجرد عن الشخصيات ونرتدى حلل العدل والانصاف . إنا لانشك في أن الفقه الاسلامي قد عسر بسبب نبذ تلك الطريقة السلفية القديمة التي خطها أولائك الجهابذة العظام أولائك الذين درسوا الشريعة الاسلامية كما ينبغي وعرفوا حقاً مقاصدها التي ترمي اليها وأدركوا أنها شريعة سمحة لا تريد ان تكلفنا بما ليس في استطاعتنا الاتيان به او في الاتيان به مشقة عظيمه كما لا تريد ان تجعل علينا حرجاً

ولا ضيراً بل نظرت الى ضعفنا فيسرت لنا اموراً ورخصت لنا فعل اشياء ان دعت اليها ضرورتنا في هاذه الحياة واوصتنا بعدم التعمق في الدين حتى لايحصل لنا نصب ولا ملل . هاهو قانونها السماوي ينادي فينا صباح مساء . مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولاكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون. وهامشرعنا الاعظم صلى الله عليه وسلم يقول لنا . يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا ولن يشاد هاذا الدين احد الا غلبه . إلى غير ذالك من الادلة والبراهين التي لاتخفى على المطلعين ذهب أولائك العظام نجوم الاهتداء ومصابيح الظلام ، فخلف من بعدهم خلف سلكوا طريقا غير طريقهم ونهجوا سبيلا غير سبيلهم وابوا الا ان يتمسكوا بالجدل والاراء ، ويتفرقوا الى مذاهب وشيع يقف الانسان امامها حيران مندهشا لايعرف ايَّ طريق يتبعه ولا ايَّ مذهب يختاره فيعمد اولا الى ما قاله المصنفون يريد الاخذ به لولا ما يعترضه من أولائك الشارحين الذين يرعدون ويبرقون وينتقدون ما يريدون بل يحملون حملة شعواء على كل من انتسب لذالك القول وتمذهب بهذا المذهب ، وبينما هو سابح في بحر من التفكير عظيم ، اذ يرى امامه تلك الامواج المتلاطمة المخوفة المرعبة فيتبينها فاذا تلك الحواشي التي تناديه قائلة : قف مكانك واستمع لما سيتلى عليك انك كدت ان تخرج عن الطريق المستقيم وتصبح من الخاسرين ، تعال فان الحق ما ستسمعه ان شاء الله وهنا يريد ان يفكر شيئا قليلا (ان كان ذا فكر حر) في الاستدلالات والمرجحات لولا ما يقرعه من تلك الاصوات التي يبلغ صراخها عنان السماء ، وليست الا اصوات ذوي التقارير الطويلة الذين يرفعون من يشاءون ويخفضون من يريدون ، فيختلط عليه الحابل بالنابل ويفضل الجلوس في راحة وسكون على الخوض في تلك المعامع التي لاتخمد نارها الا بعد ان تاكل الاخضر واليابس . هكذا تشعب الفقه الاسلامي وهكذا كثرت فيه الاقوال والخلافات فلو رجعنا الى كتاب الله وسنة رسوله الكريم لما صعب علينا اخذ الاحكام ولما بقيتا نخبط خبط عشواء في الليلة الظلماء . وبعد فقد رأيت قبل ختم هاذه الكلمة ان اوجه الى شبابنا (حياه الله) هاذا الاستفهام ثم ادع الجواب لافكارهم المتنورة : لقد علمتا جميعا ماحاق بالفقه الاسلامي من الاختلاف الكثير والتشعب العظيم فهل يمنعنا ذالك من ان نجنى تلك الثمار التي هى ضرورية لحياتنا بعد ان نتعب نفوسنا شيئاً يسيراً ؟ على اننا اليوم بفضل ءالة الطباعة ، تلك الالة العجيبة التي سهلت لنا كل صعب وقربت لنا كل بعيد قد توصلنا الى كتب قيمة خطتها بمداد الاخلاص وقلم الاطلاع يد اسلافنا المقدسين فما شئت من سهولة في العبارة وترتيب في الكلام وعدم تتبع تلك الجزئيات التي لاتنقضي إلا بعد أن تتبدل الارض غير الارض والسماوات ويرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين فمن أرادها فليرجع اليها فانها لاتخفى عن الباحثين المعتنين ، اما أنا فقد رأيت ذكرها هنا (بحسب فكري) غير مناسب لانه ربما يعد خروجا من موضوع لموضوع وذالك ماتاباه نفسي ويستثقله ضميري وان سمحت لنا الظروف فسنتكلم عليها في غير هاذا بحول الله . هاذه نصيحتي اليكم ايها الشبان المتنورون فان انتم عملتم بمقتضاها وتقبلتموها بصدور رحبة فقد احسنتم لانفسكم وان توليتم عنها واعرضتم فانما عليه ماحمل وعليكم ماحملتم ، وان تطيعوه تهتدوا ، وما على الرسول الا البلاغ المبين .

الطاهر بن محمد الفاسي